٢ ـ غاندى الصـــــوام

للاســـتاذ حسين مهدى الغنام

من أقوال غاندى الثائرة قوله : « إن الوطنى الذى يريد أن يخدم وطنه ، يجب عليه أن يحتفظ بجسده وعقله طاهرين ، حتى يجعل من نفسه أداة صالحة لخدمة هذا الوطن . والإنسان الذى يخدم السلم والإنسانية ، عليه ألا يتجه فى نضاله إلى الأشخاص ، بل عليه أن يحارب النظم الفاسدة ويستأصل روح الشر التى تسيطر على بعض الناس » .

وكان هذا الرأى دستور غاندى فى حياته ، ومبدأه ومذهبه العملى الذى نادى به ، ثم اعتنقه عملياً وأداه بنفسه فى حياته ، وعمل على نشره فى العالمين ...

فلما بدأ حركة العصيان المدنى أمر أتباعه أن يتخلوا عن كل متاعهم الدنيوى ، وبهبوا أنفسهم لخدمة غرضهم الأسمى ، ويتطهروا روحاً وجسماً ويتهيأوا لمحاربة الشر الكامن فى الإنسان ، حرباً روحية بلا عنف أو قسوة

وبدأ الرجل حركته الجديدة . وتبعه مريدوه وتلامذته .

ولكن إحدى تابعاته ضلت ، فانقطعت عنهم واحداً وعشرين يوماً ، عادت بعدها تستغفر زعيمها ، فاستيقن من صدق توبتها ، وعزم أمره على شراء خطيئاتها بالصوم واحداً وعشرين يوماً ...

وهكذا بدأ غاندى سياسة الصوم ، التى تتلخص فيها فلسفته !

والذى قاله السردار إقبال على شاه عن قوة غاندى الروحية وتأثيرها على الهنود ، صحيح فى جملته . وكان سلاح الرجل الوحيد ذلك السلاح الهادىء الذى لا يحدث صوتاً ولا فرقعة ، سلاح الصوم ، والصوم بمعنى الإنسانية العليا والصبر والقناعة والرضى .

وكان هذا السلاح ذا تأثير عظيم فى الهنود ، بل لم تكن مجموعة من القنابل الذرية بكافية لأن تهز ملايين الهنود كما يزلزلها صيام ذلك الشيخ الهندوكى الواهن الجسم .

كان المتنبئون والروحيون من الهنود يقدرون لزعيمهم أنه سيعمر ما بين ١٢٥ و١٣٣ عاماً . وكان غاندى يعتقد مثل هذا الاعتقاد . ولكنه قبل اغتياله نذر أن يصوم حتى الموت إذ لم ينفذ الهندوس ماطلب منهم فى صالح المسلمين واتحادهم معا .

واطالما عمد غاندى إلى الصوم الذى كان أشد أسلحته ، فكان هذا الصوم يقف الاضطرابات الطائفية فى بلاده ، فتنقلب دعوات البغضاء إلى أغانى حب . وكان يتلافى الأزمات الحادة التى كانت تجر الخراب والدمار على المسلمين ، ويهدىء الأعصاب والثورات ، ويحفظ اتحاد الهنود ، وينقذ أرواح المسلمين ، بهذا السلاح الضعيف القوى ، الذى برع فيه فكان يفل عزائم الأبطال ...

ولقد هدأ غاندى ثورة كلكتا مرة ، بأن صام ، ففعل صومه ما لم يستطع فعله ٥٥ ألف جندى لم يستطيعوا حفظ السلام فى مقاطعة البنجاب .

وكان غاندى ، أشهر صائم فى العالم ، لا يشجع غيره على تقليده فى الصوم بلا روح .

لما أفطر بعد صومه الخامس عشر الذى استغرق ١٢١ ساعة قال لأبناء وطنه : « فى هذا العصر المقلد بلا تمييز ولا شعور ، أحذركم وأقول إنه لمن الغباء من أى شخص آخر أن يفعل مثلى وينتظر نتائج سريعة ، فستذهب آماله وآلامه هباء ، فإن للصيام مؤهلات قاسية يجب أن تتوفر فى القائم به ، إذ يجب أن يكون صاحب عقيدة صادقة فى الله ، وأن يكون صومه بدعوة من الله ودعاء له . وبهذا يكون للصوم أثره ونتائجه التى أدى من أجلها وقبل أن يؤدى يجب أن يمهد له بتمهيدات طويلة ، فلا تدعو إنساناً ما أن يقوم إذن بهذا الصيام مالم يكن مستعداً له استعداداً قلبياً خالصاً ... إنه ليس مجرد تقليد » .

وقبل سنين طويلة كتب غاندى عن الصيام فقال : « إن الصيام نظام قديم قدم آدم . وكان يتخذ إما وسيلة لتطهير النفوس وإما لغايات نبيلة أو رذيلة . ومن قبل صام بوذا وعيسى ومحمد حتى يتمكنوا من رؤية الله وجهاً لوجه . إن الصيام قطعة من كيانى ، وإنى أتمسك به ، لأنه وسيلة كل باحث عن الحقيقة »

وقد كتب طبيب غاندى الذى كان يعنى به أيام صيامه ،

وهو الدكتور روى : « أن الصيام عند غاندى عقيدة دينية . فقد كان يبدؤه بالصلاة ، ثم يختتمه بالصلاة ، كما كان فى أثناء صومه — طال أم قصر — يبدو كأنه متصل بقوة روحية عليا »

وقبل أربع وعشرين سنة صام غاندى ٢١ يوماً فى دلهى ، لكى يربط بين الهندوس والمسلمين . ثم صام لنفس الغرض فى كلكتا هذا العام ، وقد أدى صيامه إلى نتائج طيبة ، كما صام فى سبتمبر الماضى فى ثانية المدن الكبرى فى الكومنولث الإنجليزى ، وكانت الإضطرابات بين الطوائف تهددها وتهدد أهليها بالدمار والفناء ، وأدى صومه إلى نتيجة عظيمة ، حتى سمى هذا الصوم معجزة كلكتا ..

وبدأ غاندى صيامه التاسع عند ما اعتقل أثناء الحرب الماضية فى (ڤيلا) أغا خان فى پونا ، ثم رفض عرضاً بريطانياً باطلاق سراحه إذا أنهى صومه ، وقد أطلقوا سراحه عام ١٩٤٤

ولقد لعب غاندى دوراً عظيما فى جميع المحادثات التى أدت إلى استقلال الهند فى أغسطس من العام المنصرم ، فأعلن قبل تحقيق حلم حياته الذهبى بأيام قلائل ، إنه اعتزم أن يعتزل السياسة ، واصطحب معه حسين السهروردى — الزعيم المسلم المعروف — وعاشا فى أكثر أحياء كلكتا اضطراباً وشغباً ، ثم بدأ فى أول سبتمبر صومه حتى يعود إلى كلكتا عقلها !

وقد أنهى صيامه بعد أربعة أيام حينما بدأت قوة (پوليس) شمالى كلكتا صيامها لمدة أربع وعشرين ساعة ، مشاركة للزعيم وكان فى تلك القوة ضباط أوربيون وانجليز وهنود كثيرون .

وفى السادس من سبتمبر الماضى ، قبل أن يغادر غاندى كلكتا ، أخبر المصلين معه أنه إذا أقلق سلام كلكتا مرة أخرى ، فليس أمامه إلا الصوم حتى الموت ...

وفى الثالث عشر من يناير هذا العام ، بدأ صيامه إلى أجل غير معلوم ، ليحقق اتحاد الهندوس والمسلمين . وعندئذ أرسلت الهند والباكستان ، مندوبيهما إلى (ليك سكسس) ليقدموا إلى مجلس الأمن وجهات أنظارهما عن ولاية كشمير ، ولكن المهاتما قال إنه لا شأن لصيامه بأعمال الأمم المتحدة .

وفى الثانى عشر من نفس الشهر ، عندما وقعت حكومة الهند ورؤساء أحزابها تعهداً بتحقيق شروط غاندى السبعة التى اشترطها عليهم فى صالح المسلمين ، أنهى صومه ، وكانت مدته ١٢١ ساعة ثم قال : « لا أستطيع أن أعتقد فى استحالة الصداقة والأخوة بين الهندوس والمسلمين والسيخ والمسيحيين واليهود والفارسيين فاذا تحطمت هذه الصداقة التقليدية تحطم الشعب الهندى كله ، وإذا تحقق هذا العهد ، فانى أؤكد لكم أن تحقيقه سيتمخض عن وسيضاعف ابتهالى إلى الله ، وسيمهلنى هذا على أن أحيا بقية حياتى قرير العين ، مؤدياً للانسانية الخدمة التى فرضتها على خلال المحطة الأخيرة من حياتى ، التى يقدر لها بعض المتنبئين أن ستكون ١٢٥ سنة ، ويقول البعض الآخر بل ستكون ١٣٣ عاماً

ومن حوادث صومه الطريفة ، صومه الذى قام به مشار (أياشد تواردهان) الذى رفض أن يقوم بعمل (الزبال) فى سجن (يرفادا) ، ورفض كذلك أن يمس أى طعام حتى لا يقوم بعمه الكناس كما أمر ، فصام ، وصام غاندى معه ، وهنا خشيت السلطات على حياة الزعيم فأعفت (أياشد) من أوامرها ، وه أفطر الرجلان ...

وكان من ثمرات صيامه الطيبة ، صومه ضد الحكم الذى تبع محادثات ما كدونالد سنة ١٩٣٢ ، ضد المنبوذين ، وهم أحد الهنود حياة وأشدهم فقراً ، فكان من نتائج هذا الصوم أن تفتحت أبواب المعابد الهندية الضخمة للمنبوذين ، ومنذ ذلك اليوم صاروا يعرفون باسم (الهاريجان) وهى تعنى أحباب الله

وفى الخامس والعشرين من يونيو سنة ١٩٣٤ حاول شخص مجهول أن يلقى قنبلة على غاندى فى پونا ، فأخطأته ولكنها أصابت سبعة أشخاص . وكان لهذا العمل الإرهابى أثره ، فبعد أسبوعين استعمل أحد أنصار قضية (الهاريجان) العنف فى التعبير عن اعتقاداته فى مقاومة الهندوس ، فصام غاندى سبعة أيام ليشجب هذا الخاطىء بخطيئته .

وقد قال البانديت نهرو مرة عن المهاتما : « لشد ما كان غاندى لغزا غامضاً محيراً ، ليس للحكومة الإنجليزية وحدها بل لشعبه أيضاً ، بل لأقرب المقربين إليه من أنصاره ومريديه

ثم قتل هذا اللغز البسيط المعقد ، الذى لم يفهمه أحد حق فهمه ، فقضى شهيد اتحاد الهند ، وشهيد الإنسانية فى هذا العصر المادى المضطرب ، ولكنه مات ميتة نبى ... والأنبياء — كما قيل